

وأول الخوانك بمصر - على قول المقریزی - خانكا سعيد السعداء، التي وقفها صلاح الدين الأيوبي للوافدين على مصر من فقراء الصوفية ورتب لهم فيها الطعام واللحم والخبز. وبلغ عدة من بها في بعض الأوقات قرابة ثلثمائة صوفي. أما الحتفالهام التقليدي بصلاة الجمعة وخروج موكهيم الرسمي من الخانكا إلى جامع الحاكم وعودتهم منه، فيقول المقریزی عنه: إنه من أجمل عوايد القاهرة. ثم أنشأ الظاهر بيبرس خانكا أخرى نزل بها حوالى أربعمئة صوفي، ثم تتابع إنشاء الخوانك حتى زاد مذكره المقریزی في خطه عن العشرين، منها واحدة أنشأتها الخاتون طوغاي زوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأنزلت بها بعض جواريتها، وقررت لهن المعاليم والأزراق. وقامت تلك الخوانك بوظيفة المدارس في بعض الأحيان، وعمرت قاعاتها بدراسة الفقه والحديث وقراءة القرآن طالما كانت أوقافها بعيدة عن أيد الناهبين من الأمراء والسلطين ومن اليهم.

أما الأربطة فيمعرفها المقریزی بأنها الدور التي يسكنها أهل الطريق ويقول: "و شرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب الكتفاء بكفالة مسبب الأسباب، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات، ومواصلة الليل بالنهار بالعبادة، متعوضاً بها عن كل عادة، والاشتغال بحفظ الأوقات، وملازمة الأوراد، وانتظار الصلوات، واجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً".

ولا شك أن حياة الزهاد بتلك المؤسسات، هي رهبانية لا يقرها الإسلام الذي يأمر بالسعى والجد، وينهى عن القعود والتواكل. ولكن من يستطيع أن ينكر تأثر المسلمين بما حولهم مما ابتدعته الأديان السابقة! وفي اعتقادي أن الخوانك والأربطة، تطوراً عن الأديرة المسيحية، ولعل كثرة إنشائها في العصور الوسطى، راجعة إلى ما خلفه الصليبيون بالشرق أثناء كفاحهم الطويل للاستيلاء على بيت المقدس وما حوله. على أنه لا حيلة لنا في دفع هذا التأثير، لأن سنة الحياة أن يتأثر الكائن بغيره، ويؤثر في غيره.

ويذكر المقریزی في خطه اثني عشر رباطاً، أشهرها رباط الست البغدادية أنشأته ابنة الظاهر بيبرس للنساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن ميانة لهن، لما كان فيه من شدة الضبط، والمواظبة على وظائف العبادات وغاية الاحتراز، "حتى أن خادمة الفقيرات به، كانت لا تمكن أحداً من استعمال إبريق ببزوز، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه".

ومن منشأ ذلك العهد كذلك الخانات، وهى فنادق ينزل بها الغرباء والمسافرون ومن لا مأوى لهم من الفقراء وأبناء السبيل، ومن أمثلة ذلك خان السبيل الذي أنشأه بهاء الدين قراقوش، وجعله نزلا بغير أجر لأبناء السبيل والمسافرين، وجهازه بما يكفل لهم وسائل الراحة.

والدراس للتاريخ المصرى أو التاريخ الإسلامى في العصور الوسطى بوجه عام يجد نفسه أمام تورات اجتماعية ناضجة لم يشهدها ذلك الركن من العالم من قبل. ولا شك أن وقوع هذه المنطقة في قلب العالم النابض، جعلها شديدة التأثر بغيرها، كما جعلها في نفس الوقت شديدة التأثير في غيرها، وأن مامر بها من أزمات وحروب متكررة وإغرات مفاجئة أكسبها سرعة التكليف للظروف الطارئة، والاستجابة لحاجاتها الجديدة، وإذا كانت إغرات المغول من الشرق، وحملات الصليبيين من الغرب قد أفقدتا الشرق الإسلامى أشياء كثيرة، فقد أخرجته تلك الهزة العنيفة من عزلته، وأزاحت عن جفونه النوم الذي غط فيه فترة طويلة.

أما حظ مصر من تلك الهزة فكان أحسن من حظ غيرها لأسباب أهمها أن تلك الأحداث حدثت وبها دولة قوية لا يتمتع بمثلها أحد من جيرانها من الدول الإسلامية، هذا فضلا عن أنها لم تصب بشيء من تخريب المغول، ولم تتعرض لشر يذكر من حملات الصليبيين. وقد أتاح ذلك لمصر أن تخرج من عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك دولة منظمة مرتبة في أحوالها الاجتماعية والإدارية والتعليمية، وأن تخلف تراثاً ضخماً صالحاً لأن يكون غذاء طيباً لأجيال خالفة إذا ما رعاها القوامون عليه بالدرس والبحث والنشر؟